

بناء الجماعات حول الهويات الدينية

يتزايد عدد المهاجرين المسلمين القادمين إلى الاتحاد الأوروبي من دول سوفياتية سابقة تزايداً سريعاً منذ مطلع التسعينات. ففي حين يبحث معظم المهاجرين عن الاستقرار الاقتصادي والأمن الاجتماعي وعن ظروف أفضل للتعليم في دول أوروبا الغربية، يهاجر بعضهم هرباً من الأنظمة القمعية في الدول السوفياتية السابقة. في غضون عقد تقريباً، طلب آلاف المهاجرين من جمهوريات آسيا الوسطى (كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان وتركمنستان وأوزبكستان) وجنوب القوقاز (لا سيما أذربيجان) وبعض المناطق في جنوب روسيا (الشيشان وداغستان) اللجوء السياسي بسبب عدم الاستقرار السياسي واضطهاد الحكومات لهم في بلدانهم.

لدى وصولهم إلى أوروبا، يستعمل العديد من المهاجرين المسلمين من الدول السوفياتية السابقة حرية التعبير والتجمع للانضمام إلى الجماعات الدينية. يعود المهاجرون إلى ركائزهم الأيديولوجية التي كانت مكبوتة أثناء الحكم السوفياتي. لكن هذه العودة تذهب إلى أبعد مما كانت عليه ممارسة الإيمان الإسلامي قبل الحقبة السوفياتية وتتخذ أشكالاً أقل تقليدية في السياق الأوروبي. وليس المهاجرون العاملون أو المهاجرون ذوو الدخل المنخفض ومستويات التعلم المتدنية الوحيدون الذين يميلون إلى التواصل عبر الخطوط الدينية، بل إن التلامذة ورجال الأعمال ينضمون أيضاً إلى الشبكات الدينية.

سبعون عاماً من الحكم الشيوعي قمعت الهويات الدينية في المساحة السوفياتية سواء كانت مسيحية أو مسلمة أو أي هوية دينية أخرى. لكن بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، أعيد إحياء المشاعر الدينية في معظم الدول السوفياتية السابقة بما فيها دول آسيا الوسطى وجنوب روسيا وجنوب القوقاز. بدأت هذه الدول تشهد صعوداً للمعارضة السياسية الدينية التي تتحدى النظام الحاكم من خلال الاحتجاجات المدنية والاضطرابات العنيفة على السواء. وفي هذا الإطار، حاولت الدول السوفياتية السابقة مثل أذربيجان وطاجيكستان وأوزبكستان حيث غالبية السكان من المسلمين، أن تحافظ على مقاربة ليبرالية نوعاً ما حيال الدين مقارنة ببلدان إسلامية أخرى. وفي البلدان التي تضم أقلية روسية لا بأس بها، مثل كازاخستان وقيرغيزستان، كانت التقاليد الدينية تُمارس فقط في الأعياد في حين يؤدي الإسلام دوراً هامشياً في الحياة اليومية.

لدى وصولهم إلى أوروبا، يختار المهاجرون من آسيا الوسطى والقوقاز بناء شبكات اجتماعية بالاستناد إلى هوياتهم الدينية وليس إلى الركائز السياسية أو الإثنية أو التاريخية أو المهنية. يبني معظمهم شبكات اجتماعية مع الجماعات القادمة من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والبلقان وتركيا وليس مع مهاجرين غير مسلمين أو مهاجرين علمانيين من دول سوفياتية سابقة أو مع السكان المحليين. نلاحظ أن الجماعات المسلمة في مختلف أنحاء أوروبا تضم عدداً متزايداً من المسلمين القادمين من مختلف الدول، ويشكل المسلمون من الدول السوفياتية السابقة جزءاً لا يتجزأ منها. وعبر الانضمام إلى جاليات أكبر انطلاقاً من رابط الإسلام، يتعرض المهاجرون من آسيا الوسطى وجنوب القوقاز للآراء السياسية التي تتبناها هذه الجماعات المسلمة.

خلافاً للمهاجرين من دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، لدى المهاجرين المسلمين من الدول السوفياتية السابقة ماضٍ سوفياتي مشترك ولم يكونوا جزءاً من السيطرة الاستعمارية التي مارستها أوروبا الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وعلى الرغم من أن عدداً من الخصائص يميز المهاجرين المسلمين من الدول السوفياتية السابقة عن الجماعات المسلمة الأخرى، تؤدي الهوية الدينية دوراً أساسياً في اندماجهم في واقع أوروبا الغربية. وتشمل المشاركة الرسمية للانضمام إلى مؤسسات دينية مثل المساجد والمدارس الدينية والمنظمات الثقافية - الدينية. أما المشاركة غير الرسمية فتشمل ممارسة التقاليد الدينية في أحداث عائلية وزيجات بين الإثنيات المختلفة.

على الرغم من غياب الإحصاءات الدقيقة، يصل سنوياً مئات المهاجرين من الدول السوفياتية السابقة إلى دول الاتحاد الأوروبي للإقامة لفترة قصيرة أو طويلة بصفة عمال مهاجرين أو طلاب أو طالبي لجوء سياسي. وقد ارتفع عدد طالبي اللجوء السياسي من دول آسيا الوسطى وجنوب القوقاز في الزوج والسويد وألمانيا ودول أوروبا الشرقية. على سبيل المثال، في صيف 2005، نقلت المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة 439 لاجئاً أوزبكياً إلى دول عدة في الاتحاد الأوروبي نتيجة القمع العنيف لأعمال الشغب المدنية في أوزبكستان.

في ضوء التحوّل المرتقب في الأنظمة السياسية في دول آسيا الوسطى والاضطرابات السياسية الحالية في منطقة القوقاز، على الأرجح فإن عدد طالبي اللجوء من الدول السوفياتية السابقة سيستمرّ في الارتفاع في السنوات المقبلة. ومن شأن عدم الاستقرار المحتمل والحاليّ في أماكن مثل داغستان وقبردينو - بلقاريا والشيشان وأوزبكستان وطاجيكستان وتركمنستان أن يؤدي إلى ارتفاع في عدد المهاجرين إلى الاتحاد الأوروبي.

وتيرة اندماج الجماعات القادمة من آسيا الوسطى في المجتمعات الأوروبية مشابهة إلى حدّ ما للوتيرة التي تندمج بها الجماعات الشرق الأوسطية والشمال الأفريقية. يُظهر المهاجرون الذين قدموا إلى أوروبا بعد انهيار الاتحاد السوفياتي كيف تتعرّز المشاعر الدينية حتى بين المهاجرين الأكثر اعتدالاً. كما يُظهر المهاجرون المسلمون من الدول السوفياتية السابقة كيف أنّ الديانة ليست بالضرورة أداة صمود في بيئة أجنبية وحسب بل يمكنها أيضاً أن تحلّ مكان الهويّات الإثنيّة أو العلاقات الطبقيّة أو الآراء السياسية.

إريكا مارات باحثة قبرغيزية متخصصة في شؤون آسيا الوسطى، وإمين بولجاريك باحث بوسني وأستاذ في جامعة أوبسالا

في السويد. كتبنا هذا المقال لـ "قضايا النهار"

وترجمته عن الإنكليزية نسرين ناصر

كي فراجلوب ني إم إو تارام الكي إر إ